الجزء الثالث — المجلد السابع والعشرون

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٢ — ٩ شوال سنة ١٣٧١

نظرية الخير عند ابن سينا

من عادة مؤرخي الفلسفة ، إذا بحثوا في مذهب من المذاهب ، أن يحللوا هذا المذهب ، ويبينوا علاقته بالوسط الاجتماعي الذي ظهر فيه .. والسبب في ذلك أن لحياة الفيلسوف تأثيراً عميقاً في مذهبه ، فاذا كانت حياته مقترنة بالآفات ، والشدائد والآلام ، جاء مذهبه في الغالب مفعماً بالتشاؤم ، واذا كانت حياته ، على العكس من ذلك ، مقترنة بالسعادة والرفاهة ، جاء مذهبه مشبعاً بروح التفاؤل . فإن الحياة المحبوبة ، التي معها صحة البدن ، واعتدال المزاج ، توحي بالاطمئنان والرجاء ، وتبعث على الاعتقاد أن الخير عام في الوجود . وقلما وجدت فيلسوفاً ربيباً لم يكن عيشه مضطرباً ، ولا فيلسوفاً وثوقياً أو عقلياً لم يستمد وثوقه وايمانه من تربيته ونشأته . واذا كان الأمر على ما وصفنا فليس بعجيب ان يكون مذهب الفيلسوف صورة صادقة لمزاجه وسجيته ، وان تكون مبادئه وغاياته موافقة للتيارات الاجتماعية التي أحاطت به ، ولكن العجيب أن يجيء مذهب الفيلسوف مبايناً لحياته ، وان لا يكون بينه وبين الوسط الذي عاش فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تجاوب وتفاعل . ففي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن نشوء بعض المذاهب لا يمكن أن يعلل بتأثير الحياة ، والتربية ، والوراثة . وكثيراً ما رأينا بعض المذاهب الفلسفية مباينة تماماً لمزاج أصحابها وحياتهم ، فيكون الفيلسوف محباً للدعة والسكون ، ويكون مذهبه مبنياً على فكرة القوة والحركة . ويكون أيضاً محباً للشهوة ، والعبث والمجازفة ، ويكون مذهبه مبنياً على العقل ، والنظام والفضيلة . لقد كان (نيتشه) وديعاً كالحمل ، الا ان المذهب الذي جاءنا به كان مذهب القوة ، لا بل مذهب الثورة على الأخلاق الوديعة . وربما كان مذهب (ابن سينا) أيضاً أبعد المذاهب عن تصوير حياته ، لأنه كان في عيشه كثير الاضطراب ، محباً للمغامرات ، مخلطاً في الشهوات ، ساعياً وراء اللذات ، لا يهدأ ولا يفتر ، الا ان مذهبه الفلسفي كان ، على العكس من ذلك ، مشتملاً على فكرة الخير ، والنظام ، والعقل والكمال . لقد كان يفضل كما يقول الحياة العريضة القصيرة على الحياة الطويلة الضيقة ، ويعني بالحياة القصيرة العريضة ، الحياة الكثيرة النشاط والانتاج ، التي لا يقنع المرء فيها بما أدركه من الجاه ، فيعتد بنفسه ، ويغالب الزمان ، ويطلب مراتب الرفعة . وهو كلما أدرك حالة بدل بها غيرها ، وكلما بلغ حداً لم يقف عنده . كأن حياته الغنية الواسعة أشبه شيء ببحر متلاطم الأمواج ، يوحي اليك بفكرة اللانهاية . أما العالم الذي تصوره ، فقد كان عالماً متناهياً ، لا بل عالماً مغلقاً . كل شيء فيه بقدر ، وكل أمر فيه مقيد . وبكاد يكون هذا التضاد بين حياته النفسية والاجتماعية ، وبين مذهبه الفلسفي تاماً . فحياته حياة اللذة ، والحركة اللانهائية ، والخلق الدائم ، ومذهبه مذهب العقل ، والمعقولات ، والصور المحددة ، والفيض ، والكمال ، والخير .

تصور أيها القارئ ، بهواً مغلق الأبواب ، فرش بأفخر الرياش ، وزين بأجمل الصور ، وأضيء بمصباح ، وضع في مشكاة ، كأنه كوكب دري ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يرسل نوره الى مصابيح أخرى ، معلقة في الفضاء ، لا يزيد عددها على عشرة ، تحلل هذا النور ، وتعكسه على الجدران بألوان مختلفة . ان هذا البهو صورة مطابقة للعالم الذي تصوره (ابن سينا) ، فهو محدود متناهٍ ، وهو مغلق الأبواب ، إلا أنه منظم مرتب ، كل صورة من صورة وضعت في المكان اللائق بها . وهذه الصور تتلألأ بما يفيض عليها من النور ، لا بل هي نفسها نور يفيض عن المصباح ، ويصبغ الأشياء بألوانه . ولولا هذا الفيض لما ظهرت هذه الأشياء ، ولما وجدت تلك الصور . فكأن النور الذي يضيء هذا البهو علة وجود الصور ، لا بل علة وجود البهو نفسه ، وعلة ما فيه من صور وأجسام . والفرق بين هذا البهو ، وبين عالم (ابن سينا) ، أن العالم كبير ، وهذا البهو صغير ، وأن ابداعه قديم ، وهذا البهو حادث ، وان المصباح الأول الذي يفيض عنه النور ليس داخل البهو ، وانما هو مستقل عنه ، خارج عن الزمان والمكان .

لنخرج الآن من بهونا الصغير ، ولنتأمل العالم نفسه . ان هذا العالم مؤلف من موجودات مختلفة المراتب ، وهي الجواهر المفارقة ، والصور ، والأجسام ، والهيولى ، والعرض . فالمرتبة الأولى في الوجود هي مرتبة الجواهر المفارقة ، والمرتبة الثانية هي مرتبة الصورة ، والثالثة مرتبة الجسم ، والرابعة مرتبة المادة ، والخامسة مرتبة العرض . « وفي كل طبقة من هذه الطبقات جملة موجودات تتفاوت في الوجود »[1] . فالجواهر أو العقول المفارقة متفاوتة المراتب ، أعلاها العقل الأول ، أو المعلول الأول ، وأدناها العقل العاشر ، أو العقل الفعّال المحيط بعالم الكون والفساد . والأدنى يفيض عن الأعلى . فالعقل الأول يفيض عن الواجب الوجود بذاته ، والثاني يفيض عن الأول ، وتحت كل عقل عقل ، حتى تصل الى العقل العاشر ، وعنده ينتهي فيض العقول المفارقة[2] . والأمور

(١) النجاة ، ص ٢٠٨ ، طبعة محيي الدين صبري الكردي ، القاهرة ص ١٩٣٨

(٢) النجاة ص ٢٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السماوية تؤلف سلسلة محدودة الحلقات ، في كل حلقة منها ثلاثة أشياء ، هي : العقل ، والنفس ، والجسم . فالإله عقل محض بعقل ذاته ، فيصدر عن عقله لذاته عقل أول ، وهذا العقل الأول واحد بالعدد ، لأنه لا يصدر عن الواحد الا واحد . وهو بعقل ذاته وبعقل الاله ، فيصدر عن عقله للاله عقل ثان تحته ، ويصدر عن عقله لذاته شيئان هما نفس الفلك الأقصى وجرمه ، لأن جوهر العقل الأول واجب بالاله ، ممكن بذاته . فالنفس تصدر عن عقله لذاته واجبة الوجود بالإله ، والجسم يصدر عن طبيعة الإمكان المندرجة في عقله لذاته . وهكذا يلزم عن العقل الأول عقل ثانٍ ، ونفس ، وجسم . ويلزم عن العقل الثاني أيضاً عقل ثالث ، ونفس ، وجسم ، حتى ينتهي الفيض عند فلك القمر وكرة الهواء المحيطة بالأرض .

فأنت ترى ان العقول المفارقة محدودة العدد كالمصابيح التي أشرنا اليها عند وصف بيوتنا الصغير . وهي تستمدّ من الله قوة ابداعها ، كما تستمد المصابيح نورها من المصباح الذي في المشكاة . وهذا المصباح الأول ، هو المبدأ الأول ، الواجب الوجود بذاته . وهو عقل ، وعاقل ، ومعقول ، وعاشق ، ومعشوق ، ولذيذ ، ولتذ ، وهو خير محض ، وكمال محض . « والخير بالجملة هو ما يتشوقه كل شيء ويتمّ به وجوده »[1] . فالوجود خيرية ، وكمال الوجود خيرية الوجود . والوجود الذي لا يقارنه عدم هو خير محض ، وحق محض ، لا بل هو مفيد كل وجود ، وكل كمالٍ في الوجود . ولما كان العالم كله يفيض عنه بواسطة العقول المفارقة ، كان كل خيرٍ وكمالٍ في الوجود مستمداً منه . والوجود انما ابتدأ من الأشرف ، فالأشرف ، حتى انتهى الى الهيولى والاعراض . فالهيولى أخسّ من الجسم ، والجسم أخسّ من الصورة ، والصورة أقرب الموجودات الى الجواهر المفارقة . وكلما صعدت من الأدنى الى الأعلى في مراتب الوجود

(١) النجاة ، ص ٢٢٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ازدادت الخيرية ونقص الشر . فالصورة أكثر خيرية من الجسم ، والجواهر المفارقة أكثر خيرية من الصورة ، ولا تزال هذه الخيرية تتزايد صاعدة من جوهر مفارق الى آخر ، حتى تصل الى الخير بذاته ، أي الى الله تعالى . وهو كما يقول (ابن سينا) « سبب لكل خير »[1] ، لا بل هو خير مطلق ، وعشق مطلق ، وهو لجوده وكرمه يحب أن يتجلى لكل عاشق ، فاذا احتجب جماله عن بعض الموجودات ، فذلك ليس لنقص في جوده ، بل لنقص في تلك الموجودات نفسها .

وهذا النقص الذي نجده في الكائنات انما يرجع الى طبيعة الامكان المندرجة فيها ، لا الى وجوب وجودها المستمد من الله . فالوجوب والخيرية متناسبان ، والإمكان والشر متساوقان . واذا قلّ الوجوب ازداد الامكان ، والعكس بالعكس . ان الخير معروف المكان محدد ، أما الامكان فلا يلمح إلاّ من وراء حجاب . وقد رأيناه مندرجاً في طبيعة العقل الأول ، ثم رأيناه أيضاً في طبيعة العقول المفارقة كلها ، حتى اذا ما هبطنا الى عالم الكون والفساد رأيناه في القوة الملابسة لطبيعة المادة . ولكن هذه المادة مقارنة للصورة في جميع الأجسام ، لا توجد بالفعل الاّ مع الصورة ، ولا تتجرد عنها ، بل تفيض الصورة عليها دائماً من العقل الفعال عند تهيؤها لقبولها . كلما حصل فيها استعداد معيّن قبلت صورة معينه ، فتتعاقب الصور عليها كما تتعاقب الأعراض على الأجسام[2] ،

---

(١) تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات .

(٢) هذا الرأي قريب من رأي المتكلمين الذين يقولون ان الجواهر لا تنفك عن الاعراض ، وانه لا بقاء للاعراض بنفسها ، وان الله هو الذي يخلقها في الجواهر ويعقبها بعضها بعد بعض . والفرق بين (ابن سينا) والمتكلمين ان العرض عند المتكلمين لا يبقى زمانين في حين ان الصورة عند (ابن سينا) لا تفارق المادة الا اذا حصل في المادة استعداد جديد هيأها لقبول صورة جديدة . وهذا الاستعداد الجديد لا يحدث في المادة الا اذا كان هناك مخصصات ومعدّات ، والمعدّ هو الذي يحدث منه في المستعد أمر يصيّر مناسبته لهذه الصورة أولى من مناسبته لغيرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذه الصور تنقل المادة من حالة الامكان البسيط الى حالة الوجود الفعلي . ولو فرضنا ان المادة عريت من الصورة لعادت الى العدم المظلم ، الا انها كما رأينا مقارنة للصورة في الوجود ، كلما حصل فيها استعداد جديد أشرقت عليها صورة جديدة ؛ وألبستها ثوبًا من الجمال والخير ، لأن المادة كما يقول (ابن سينا) شبيهة بالمرأة القبيحة ، كلما بدا وجهها للناظرين غطّت ذمائمها . فالصورة هي اذن اشراق الخير والكمال ، لا بل هي نقطة الاتصال بين الطبيعة والعقل ، ولا خير في المادة الا بما يفيض عليها من واهب الصور ، وهي تعشق الصورة كما تعشق المرأة القبيحة قناعها ، ولولا عشقها لها لما فاض عليها الكمال ، ولولا ملابستها لها لعريت من الخير ، ولغارت في أعماق العدم .

ومن تصفح كتاب الشفاء والاشارات وجد نظرية الاشراق فيهما أوضح مما هي عليه عند (الفارابي) . فالصور العقلية عند (الفارابي) موجودة بالقوة في العقل الفعّال ، اما عند (ابن سينا) فهي موجودة فيه بالفعل . بل العقل الفعّال يجمع في جوهره جميع الصور الفائضة عليه من المبادئ العلوية ، ثم يرسلها الى عالم الكون والفساد ، ويكسو بها المادة . فالصورة موجودة في العقل الفعال من حيث هي فاعلة ، أما في عالم الكون والفساد فهي لا توجد إلاّ من جهة الانفعال . وكما يُفيض العقل الفعال الصورة على المادة ، فكذلك يُفيض المعقولات على النفس الانسانية ، وما النفس التي يصف (ابن سينا) هبوطها في قصيدته العينية الا صورة كغيرها من الصور فاضت عن المبدأ المفارق ، واتحدت بالجسم عند استعداده لها . وهذا شأن جميع الصور . فالمعرفة هي الاتصال بالمعقولات ، والاشراق هو اتحاد العقل بجوهر الكون ، لأن الصور التي تفيض على العقل تجيء متفقة مع الصور التي تفيض على المادة . ان المبدأ الكلي الذي يهب الوجود للنفوس والأجسام ، يخلق الأجناس والأنواع ، ثم ينعكس بعد ذلك على الانسان فيملأه نوراً تغربله المادة وتصطبغ بألوانه . وليس في هذا النمط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من الوجود صبغة هي أجمل ولا أكمل ولا أكثر خيرية من هذه الصبغة . فالصورة اذن خير ، ومن طبيعة الخير ان يكون معشوقاً ، وان يكون علة غائية ، لأنه يطلب لذاته ، وسائر الاشياء تطلب لأجله . ولو طلب الخير لشيء آخر غير ذاته لكان نافعاً ومفيداً ، لا خيراً حقيقياً .

ان هذا الخير يفيض عن الإله على العقول المفارقة ، ثم يفيض عن العقول المفارقة على عالم الكون والفساد . وهذا يدل على ان إله ابن سينا ، كإله اخوان الصفاء ، مبدع الوجود ، ومفيض الجود ، وهو متجلٍ لجميع الموجودات ، ولولا تجليه لم يكن وجود ، ولم يكن خير ، وهو راض عن فيضان الكل عنه ، عاقل لنظام الخير في الوجود .

والفرق بين معنى الجود والخير عند ابن سينا ، ان الشيء الواحد الحاصل في قابل اذا نسب الى المنفعل كان خيراً ، واذا نسب الى الفاعل كان جوداً ، لأن قابل الشيء لا يسمى جواداً له ، ومن أفاد غيره فائدة ليستفيض عنها بدلاً لم يكن جواداً ، بل معاملاً [1] ، ومن جاد ليشرف أو ليحمد أو ليثاب فهو مستفيض ، ليس بجواد ، وفاعل الخير لا ينفعل به بوجه ، لأن الخير أمر وجودي حاصل للشيء ، فاذا أفاضه الفاعل عليه لم يكن فيضه لغرض ولا لعوض ، وانما هو كمال مناسب حصل له بحسب استعداده ، فاذا استعدّ الموجود لهذا الكمال المناسب نزع اليه ، وعشقه كما يعشق الانسان خيره الخاص به ، فكأن في الوجود تيارين متضادين : أحدهما متجه من فوق الى تحت ، وهو تيار الجود ، والآخر متجه من تحت الى فوق ، وهو تيار العشق . فالتيار الأول يتناقص بهبوطه من الملأ الأعلى الى الأرض ، والثاني يتزايد بصعوده من الأرض الى السماء . وعلة الجود علة فاعلة ، أما علة العشق فعلة غائية . ان من طبيعة الجود أن

(١) الشفاء ، الالهيات ، شرح صدر الدين الشيرازي ، ص ٢٦١ ، من طبعة طهران .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يفيض على الوجود فيضاً ضرورياً معقولاً ، كما أن من طبيعة العشق ان يتجه الى مبدأ الكمال والخير اتجاهاً غائياً . ذلك لأن كل هوية من الهويات تتشوق الكمال ، وكل موجود من الموجودات له عشق غريزي وشوق طبيعي هما سبب وجوده ، ولولا هذا العشق لما حصل على شيء من الكمال ، بل الكمال يفيض عليه من الكامل بذاته . وقد اقتضت حكمة الله أن يغرز في كل موجود عشقاً كلياً يستحفظ به ما ناله من الكمال [1] ، كما خلق فيه نزوعاً الى اكتساب الكمال عند خلوه منه . فمن الضروري اذن ان يوجد العشق في جميع الكائنات ، أي في البسائط غير الحية ، وفي الصور النباتية ، والنفوس الحيوانية ، والنفوس الناطقة . فهي كلها تنزع الى مبادئها القريبة لتفيض عليها كمالاتها ، وقد تنزع النفوس الناطقة أيضاً الى أعلى من مبادئها القريبة حتى تتصل بالإله .

ان هذا العشق هو مبدأ كل حركة في الوجود ، فهو يعلل ملابسة المادة للصورة ، وميل النبات الى الغذاء والنمو ، وميل الحيوان الى بعض المحسوسات دون بعض ، كما يعلل أفعال النفوس الانسانية ، وحركات الأجسام السماوية .

ان النفوس السماوية مثلاً لا تحرك أجسامها الفلكية الا لتنال من وراء ذلك كمالاً . فلولا عشقها الكمال لما حركت أجسامها ، ولولا رغبتها في الخير لما جهدت في الدوران . ذلك لأن الخير بذاته معشوق ، والخير عاشق للخير . « وكلما ازدادت الخيرية ، زاد استحقاق المعشوقية ، وزادت العاشقية للخير » [2] . فالإله أكثر استحقاقاً للمعشوقية من العقل الأول ، لأنه خير أعلى وكمال مطلق ، والعقل الأول أكثر استحقاقاً للمعشوقية من العقل الثاني ، وهكذا دواليك .

ولكن هل تتصف العقول المفارقة بالعشق كما تتصف بها النفس ، والصورة والمادة ، والجوهر ، والعرض ؟

---

(١) رسالة العشق ، الفصل الأول في ذكر سريان قوة العشق في كل واحد من الهويات ، ص ٧٠ من كتاب جامع البدائع .

(٢) رسالة العشق ص ٧١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان لهذه العقول كمالات مناسبة لطبيعتها ، فهي تشارك المبدأ الاول في الكمال ، وفي إفاضة الجود ، وهي تملك منذ القدم أعلى درجات السعادة . ومن حصل على ما تقتضيه طبيعته من الكمال لا يشتاق الى اكتساب كمال آخر . ومع ذلك فإن هذه العقول تعشق المبدأ الأول ، لأن طبيعتها كما بينّا لا تخلو من الامكان والقوة . ولأنها تتشبّه بالمبدأ الأول في عشقه لذاته [1] .

فالعشق عام اذن في الوجود ، ولولاه لما لابست المادة صورتها ، ولا طلب النبات غذاءه ، ولا نزع الحيوان الى الانتقام والتغلب والفرار من الذل والاستكانة ، ولا رغب الظرفاء والفتيان في الأوجه الحسان ، ولا أمّ العقل قصداً ، ولا طلب كمالاً وخيراً .

واذا كان العشق عامّاً في الوجود كان الخير غالباً على الشر . لأن الشر بذاته هو العدم ، والشر المطلق هو العدم المطلق . ولو كان الشر أكثر من الخير لانعدم الوجود كله .

وهذا كله يدل على تفاؤل ابن سينا ، لأنه يعتقد أن الموجودات كلها سابحة في بحر من الخير . كل منها ينال من الخير ما هو لائق به ، وموافق لطبيعته . ان هذا النظام الذي في الكون هو أحسن نظام يمكن أن يكون عليه الوجود ، وهذا العالم هو أحسن العوالم التي يمكن أن يتصورها العقل . وليس معنى ذلك ان العالم خالٍ من الشر ، بل الشر موجود في العالم ، ملابس للموجودات كلها . أليس من الشر أن تحرق النار ثوب الفقير المعدم ؟ أليس من الشر أن يموت الطفل وليس لأمه ولد غيره ؟ . أليس من الشر أن يحرم الانسان ما يليق به من الكمال ؟ لا مجال اذن لإنكار الشر في هذا العالم ، وابن سينا لا يتعامى عنه ، الا انه يقول ، كما رأيت : « ليس الشر هو الغالب في الوجود ، لأن الخير مقتضى بالذات ، أما الشر فمقتضى بالعرض » [2] . ومعنى ذلك ان الله لا يريد

(١) Louis Gardet, La pensée Religieuse d'Avicenne. Paris 1951 P. 169-170

(٢) النجاة ، فصل في العناية وبيان دخول الشر في القضاء الالهي ، ص ٢٨٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الا الخير ، وهو يرش على العالم من نوره ، ويريد ان تعم صورة الخير جميع الموجودات .

ولكن كيف وجد الشر في هذا العالم ، وما هي حكمة الله من وجوده ؟ كيف صدر الشر عن الإله وهو خير مطلق ، وكمال مطلق ؟ . هل تتولد الظلمة من النور ، أم ينشأ القبح والنقص عن الجمال والكمال ؟

السبب في حدوث الشر ان في طبيعة الوجود امكاناً وقوة ، ولولا هذا الامكان الوجودي المندرج في طبائع الأشياء لما تولدت الكثرة من الوحدة . اننا نعلم ان الإله واحد بسيط ، وهو فعل محض وكمال محض ، ليس في ذاته شر ، فلا يمكن ان يفيض عنه لذاته الا الخير . ولكن فيض الجود عنه يستلزم الانتقال من الوحدة الى الكثرة ، ومن الوجوب الى الامكان ، ولو كان العالم كله واجب الوجود بذاته ، لكان جوهراً واحداً مطلقاً ، كالجوهر الذي تكلم عنه (اسبينوزا) ، لا يشتمل على واحد من انحاء النقص . الا ان الأخذ بمذهب الفيض دعا ابن سينا الى افتراض الكثرة في العقل الأول ، وهذه الكثرة هي اشتمال حقيقته على معنيين : أحدهما وجوبه بالإله ، والثاني امكانه بذاته ، ولولا هذا الامكان المندرج في حقيقة العقل الأول لما تولد الشر . فالامكان هو أصل الشر في الوجود ، وهو لمكان قديم ، مندرج في الوجود تحت الخير . فكأن في حقيقة الوجود ثنائية عميقة ، سداها الوجوب ولحمتها الامكان ، فالوجوب خيرية ، وكمال ، ونور ، والامكان شر ، ونقص ، وظلام ، كلما ازداد الامكان نقص الخير ، وازداد الشر ، وهو يزداد بازدياد النفوس والكرات السماوية ، ثم ينصب منها على عالم الكون والفساد المؤلف من الصورة والمادة .

ذلك هو السبب الأول في وجود الشر . الشر هو عدم الوجود ، والشر المطلق هو العدم المطلق . وكل شر جزئي ، انما هو لخير كلي ، فاذا ازداد الامكان ، وتكثر الوجود ، ازداد الشر ، واذا ازداد الوجوب ، ازداد الجود ، والكمال ، والخير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم ان هذا الشر على انواع ، فيقال شر للعدم ، ويقال شر لنقصان كل شيء عن كماله مثل الجهل والضعف والتشويه في الخلقة ، ويقال شر للألم والغم ويقال شر للأفعال المذمومة ولمبادئها من الأخلاق (١) . وكل موجود ليس في طبيعته قوة فلا يلحقه الشر ، لأن الشر انما يلحق المادة من حيث هي قوة وإمكان .

ولكن لماذا وجد الشر ، ألم يكن في وسع الاله أن يوجد خيراً مبرءاً من الشر ؟ ألم يكن في وسع الواجب الوجود ان يبدع اللذة ولا يخلق الألم ، أن يبدع النور ولا يخلق الظلمة ؟ بلى ، ان ذلك ممكن ، ولكن في غير هذا النمط من الوجود . ان الموجود المطلق هو الخير المطلق . أما الموجود الممكن ، فلا يتصف بالخيرية الا عن طريق الجود الذي يفيض عليه . فاذا كان العالم مؤلفاً من وجوب ، وامكان ، وصورة ومادة ، وفعل وقوة ، كان لابد من وجود الشر فيه . وليس ذلك بباعث على التشاؤم ، لأن الشر أقل ذيوعاً من الخير ، لا بل هو جزئي عرضي . ان طبيعته العامة سلبية ، أما طبيعة الخير فهي ايجابية . واذا كان الشر ايجابياً في بعض الأحوال فهو يتقهقر أمام الجود الالهي ، كما تتقهقر الظلمة أمام النور . نعم ان النار محرقة ، وقد تصيب ثوب فقير فتحرقه ، الا ان هذه الآفات الجزئية التي تتولد من النار ليست من الخطورة بحيث تستلزم بطلان النار ، لأن فيها خيرات كثيرة ومنافع دائمة . وليس من الحكمة ان تترك الخيرات الثابتة الدائمة لأجل شرور في أمور جزئية غير دائمة . وهذا كله يدل على ان الخير في الوجود أكثر من الشر . ولو كان شر شيء من الأشياء أكثر من خيره لامتنع وجود ذلك الشيء ، أي لو كان ضرر النار أكثر من نفعها ، لما وجدت النار ، لأن الخير من طبيعة الوجود ، والشر من طبيعة العدم . نعم ان النار قد يعرض لها أن تولد شراً ، الا ان وجودها بصورة عامة خير ،

(١) النجاة ، ص ٢٨٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يمكن ان تبلغ النار غايتها ، وتصل الى نهايتها الا اذا كانت محرقة . فالخير الكلي يقتضي وجود الشر الجزئي ، ولا معنى للخير بدون الشر ، كما انه لا معنى للنور بدون الظلمة .

ولكن لماذا كان العالم على هذا النمط من الوجود . أليس من الممكن أن يكون الوجود خيراً كله ، أليس من الممكن أن يكون الخير مطلقاً خالصاً من الشر ؟

لا محل لهذا السؤال في فلسفة (ابن سينا) لأنه لم يقل بجوهر واحد مطلق ، بل قال بجواهر كثيرة تفيض عن المبدأ الأول ، وتحتاج في تكثرها الى افتراض الامكان مندرجاً في طبائعها . ومع ان مذهب ابن سينا يقربنا من مذهب وحدة الوجود فإن لحمة الامكان التي سدي بهـا الفيض لم تحفظ لهذه الوحدة حتميتها المطلقة .

نعم ان العالم في نظر ابن سينا يدخل في مقولة الممكن وعلاقتـه بمبدعه كعلاقة الممكن بالضروري الا ان هذا الامكان لم يحدث في زمان معين ، وانما هو امكان أزلي . فابن سينا يفرق اذن بين مفهوم الأزلية ومفهوم الوجوب ، ويجمع بين الأزلية والامكان . وكون العالم ممكناً لا يعني انه خاضع للبحث والاتفاق ، بل يعني ان حتميته اضافية مستمدة من الواجب الوجود بذاته ، اننا لا نجد في الطبيعة شجرة تثمر التين والزيتون معاً ، ولا أنواعاً نباتية أخرى مختلطة بعضها ببعض . ففي الطبيعة اذن سببية فاعلة ، وفيها أيضاً غائية ، ومن غائيتها أن لا يستقر الامكان الا اذا صيغ في قوالب الكمال والخير . أضف الى ذلك ان ابن سينا يقول في الوقت نفسه بعجز الانسان عن ادراك حكمة الخالق . قال : « لو كان أمر الله تعالى كأمرك ، وصوابه كصوابك ، وجميله كجميلك ، وقبيحه كقبيحك ، لما خلق أبا الأشبال أعصل الأنياب ، أحجن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البراثن لا يغذوه العشب »[١] . فالإله لا يراعي في قدره ما نراعيه نحن في حياتنا من الاعتبارات النفعية الضيقة ، بل ينظر الى الوجود الكلي ، ونحن لا ننظر الا الى الوجود الجزئي . ان عنايته تحيط بالكل « وبالواجب ان يكون عليه الكل حتى يكون على أحسن نظام »[٢] ، وعلمه « بكيفية الصواب في ترتيب وجود الكل منبع لفيضان الخير في الكل »[٣] . وهذا يدل على ان ابن سينا يستسلم في ذلك لقضاء الله وقدره ، ويتفاءل بالخير .

أما الانسان فانه لا ينال الخير والسعادة الا اذا عمل على ادراك حقيقة الوجود ، وتطلع الى الأفق الأعلى . وهو قادر بعقله على تمييز الحق من الباطل . واذا انقلب عقله الهيولاني الى عقل مستفاد ، ثم الى عقل قدسي ، أدرك من البهجة والسعادة ما لا يدركه الجاهل . ان سعادة الانسان ليست في اتباع اللذة ، بل هي في ادراك الكمال . فمن اشتاقت نفسه الى الخير الأعلى لم يجد في اللذات الرخيصة ما يدعوه الى الانغماس فيها ، لأنه لا قيمة لهذه اللذات بالنسبة الى اللذات العالية . نعم اننا في عالم المادة المظلم ، يمنعنا حجاب الحس من بلوغ المثل العليا التي نتطلع اليها ونحن اليها ، ولكننا اذا خلعنا ربقة الشهوة والغضب ، وطالعنا شيئاً من اللذات العالية تشوقنا الكمال واتجهنا اليه . وكثيراً ما نستخف بالشهوات الخسيسة لعلمنا انها تصدنا عن الكمال . فالنفس البشرية الخالصة من كدورة المادة تتشوق الخير المطلق ، وتنزع اليه ، وترتقي من مبدئها القريب الى المبادئ العالية ، حتى تصل الى الله . ولكن دون أن تتحد به وتفنى فيه . ومتى ارتقى العارف من درجة الارادة الى درجة الرياضة ، ومن درجة الرياضة الى درجة النيل أصبح سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق . وفي هذه المرحلة تدر عليه اللذات العالية ، ويفرح بنفسه لما بها من أثر الحق ، والصور التي تفيض عليه

(١) رسالة القضاء والقدر .
(٢) الاشارات ، ص ١٨٥ ، طبعة ليدن ، ١٨٩٢ .
(٣) الاشارات ، ص ١٨٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تكون في العقل الفعال فاعلة ، وفي نفسه منفعلة . ويظهر من وصف ابن سينا لمراحل الارتقاء ان للنفس عند الوصول حالتين ، ففي الحالة الأولى ينظر العارف الى نفسه تارة ، وينظر الى الله تارة أخرى ، ويبقى على هذه الصورة متردداً بين الجهتين ، وفي الحالة الثانية ينسى نفسه ، ولا يرى الا نور الحق . « وان لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة لا من حيث هي بزينتها » [1] لقد كانت نفسه قبل هذا المعراج محلاً لفيض المعقولات عن العقل الفعال ، فأصبحت الآن مرآة صقيلة تعكس نور الله . فهو ينسى نفسه ويغيب عنها ولكنه لا يفنى ، وهو يملأ نفسه من النور الذي يغشاه فلا يرى الا الله ، ولكن نفسه لا تحل انحلالاً تاماً في منبع النور ، لأن الرائي يبقى عنده غير المرئي ، والعالم غير المعلوم . وهكذا يرتقي العارف من نطاق الطبيعة الضيق الى فضاء العالم الواسع ، وينال أوقاتاً من السعادة الحقيقية ، بما يفيض عليه من النور . « ان لربكم في أيام دهركم نفحات من رحمته ، ألا فتعرضوا لها » .

* * *

تلك هي آراء ابن سينا في الخير والسعادة ، وهي كما ترى آراء أفلاطونية صيغت في قوالب مشائية ، أو قل اذا شئت ، لبنات يونانية صبغت بصبغة اسلامية .

فابن سينا وأفلاطون يتشابهان في قولهما ان الخير أساس كل شيء ، وان مبدأ الوجود لا يمكن أن يتوخى الا الخير بالضرورة ، لأنه عاقل ، وخير ، وعادل ، وكامل . وهما أيضاً متفقان في قولهما ان العشق هو المحرك الأساسي لجميع الكائنات ، فما قاله أفلاطون في كتاب المائدة : ان ما يعطي قيمة لهذه الحياة انما هو مشاهدة الجمال السرمدي نقياً لا تشوبه شائبة ، بسيطاً لا تغطيه أشكال وألوان مصيرها الى الفناء . والعشق عنده أول ما يتجه الى جمال الأجسام والأشكال ثم يتجه بعد ذلك الى جمال النفوس ، ثم يصعد من جمال النفوس الى جمال الفنون والعلوم ، ولا يزال يصعد من علم الى علم حتى يبلغ الجمال المطلق .

(١) الاشارات ، ص ٢٠٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذا الجدل الصاعد نجده عند ابن سينا في كلامه على سريان العشق في كل واحد من الموجودات ، وعن وجوده في النفوس النباتية ، والنفوس الحيوانية ، والنفوس الناطقة ، وعن ازدياده في الوجود بازدياد الخيرية والجود . ففي نظرية الخير كما ترى أثر من أفلاطون واضح ، ولا يبعد أن يكون ذلك مستمداً من كتب أفلاطون مباشرة ، لا من كتاب الاثيولوجيا وحده ، على ان الأفلاطونية والمشائية والأفلاطونية الحديثة لا تكفي وحدها لتوضيح كل ما اشتملت عليه نظرية الخير من مبادئ وغايات ، ففي هذه النظرية كما يبدو لنا أثر من علماء الكلام ، كما ان فيها أثراً من المانوية والاسماعيلية[1] . وليس أدل على ذلك من تفسير المعوذة الأولى الذي يقول فيه ابن سينا ان الله فالق ظلمة العدم بنور الوجود ، وان ذلك من لوازم خيريته المطلقة ، الفائضة عن هويته ، وانه ليس فيه شر أصلاً الا ما صار مخفيًا تحت سطوع النور الأول ، وأن الشر لا ينشأ الا عن الأجسام . وفرّق هنا بين القضاء والقدر ، فقال ان الأجسام هي من قدره تعالى لا من قضائه . فالانفلاق هو افاضة نور الوجود على الماهيات الممكنة ، والفالق لظلمة العدم بنور الوجود هو الله . وهذا الانفلاق هو عالم القضاء ، وهو متقدم على صقيع القدر ، والشر لا يلزم عن الفالق الا بقصد ثانوي . فلا يلحق الوجود الا في قدر الله لا في قضائه ، وعدم حصول الموجود على

---

(١) راجع ابن تيمية ، كتاب الرد على المنطقيين . طبعة مصر ١٩٤٩ ، قال ابن تيمية : « وابن سينا تكلم في أشياء من الالهيات ، والنبويات ، والمعاد ، والشرائع لم يتكلم فيها سلفه ، ولا وصلت اليها عقولهم ، ولا بلغتها علومهم . فانه استفادها من المسلمين . وان كان انما أخذ عن الملاحدة المنتسبين الى المسلمين كالاسماعيلية ، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدي » ص ١٤٢ ، وقال أيضاً : « وأما الالهيات فكلام ارسطو واصحابه فيها قليل جداً ، ومع قلته فكثير منه ، بل أكثره خطأ . ولكن ابن سينا أخذ ما ذكروه وضمّ اليه أموراً أخرى من أصول المتكلمين ، وأخذ يقول ما ذكره على بعض الفاظ الشرع ، وكان هو وأهل بيته من الملاحدة الباطنية ، أتباع الحاكم وغيره من العبيديين الاسماعيلية » ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكمالات لا يرجع الى مفيض الخيرات ، بل يرجع الى قابلها . فالخير كل الخير في انفلاق الوجود ، والشر كل الشر في انقطاع الجود .

فأنت ترى ان ابن سينا استعمل في هذا التفسير أصولاً ومبادئ مقتبسة من آرائه الفلسفية ، ولا غرو فقد كان من عادته وعادة الاسماعيلية أن يستعملوا التأويل الباطني في تفسير أمور الشريعة . وكثير من المتصوفين كابن عربي وابن سبعين والتلمساني وغيرهم يوافقونهم في أصولهم هذه ، لكنهم يغيرون العبارات . ويبدلون الاصطلاحات .

وليس المقصود هنا أن نبين ما أخذه ابن سينا عن الاسلاميين والحرانيين واليونانيين ، وما استمده من فلسفة الهنود والمجوس والنصارى ، وانما المقصود ان نبين ان مذهبه الفني بنفسه منسق الألوان ، منسجم الأحكام ، جمع فيه حكمة الشرق الى فلسفة اليونان ، وعلوم الأوائل الى عقيدة الاسلام . وليس ذلك بقادح فيه ، لأن الفلاسفة قد يبنون بالعناصر نفسها مذاهب مختلفة ، وقد ينبع نهران من جبل واحد ، ويسير كل منهما في اتجاه مضاد للآخر . وليس المهم في تاريخ الأفكار ان نكشف عن الينابيع التي استقيت منها ، وانما المهم ان نبين اتجاهات المذاهب وغاياتها . والذي ينبغي ان يعلم الآن ان العالم الذي تصوره ابن سينا عالم جميل رائع الألوان ، منسق الصور ، لكل موجود من موجوداته مرتبة من الكمال خاصة به ، ودرجة من الخيرية مناسبة له . وهو عالم محدود ضيق ، الا انه منظم مرتب ، يستطيع الانسان ان يطمئن له ، ويثق بنظامه الحتمي ، لأنه محاط بعناية الله .

لنترك الآن هذا العالم الذي طال طوافنا فيه ، ولنرجع الى عالمنا الحسي ، ففي العالم الحسي من الصور والألوان ما يغني عن ذلك العالم . ولا غرو فعالم ابن سينا من نسيج الخيال ، وعالمنا الحسي من نسيج الواقع والتجربة . وكثيراً ما يفضل الانسان سراجاً في يده على عشرات من المصابيح سابحة في الفضاء .

جميل صليبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net